المنجزات الحضارية للدولة الزنكية وآثارها في بلاد المشرق خلال القرنين(6-7هـ/12-13م)

Civilizational achievements of the Alzinkia state and its effects in the East During the 6-7 centuries AH / 12-13 AD the countries of

1- د.مروان بن شوش، أستاذ محاضر-أ- المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة (الجزائر)
benchouchemerouane@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/10/07 تاريخ القبول: 2022/04/07 تاريخ النشر: 2022/06/15

ملخص:

يعالج هذا المقال المنجزات الحضارية للدولة الزنكية وهي إحدى الدويلات التي ظهرت في بلاد المشرق الإسلامي في فترة كانت فيها المنطقة تشهد الخطر الصليبي الذي استولى على عدة مناطق،فعملت هذه الدولة على الدفاع عن المنطقة،وتوحيد بلاد المشرق الذي أضعفته التمزقات والصراعات الداخلية، وبالإضافة إلى دورها السياسي كانت لها انجازات في الجانب الحضاري التي تجلت بوضوح في اقامة المؤسسات والمراكز العلمية من مساجد ومدارس وغيرها من المؤسسات، وجلب العلماء وتشجيعهم،وتوفير مايحتاجه طلبة العلم. وقامت أيضا بإصلاح الوضع الاقتصادي،وتسهيل سبل العيش الكريم وقد كانت لهذه الجهود انعكاسات ايجابية على المجتمع الإسلامي بحيث ازدهرت الحياة العلمية،وأصبحت المدن والحواضر التي بنيت فيها المساجدو المدارس منوات علمية يقصدها طلبة العلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ،كما تحسنت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الإسلامي نتيجة الجهود المبذولة في هذا الجانب .

الكلمات المفتاحية:المشرق الإسلامي،الدولة الزنكية،المنجزات الحضارية ،الحياة العلمية،الحياة الاجتماعية.

*- المؤلف المرسل

Abstract: which is one of the states that appeared in the countries of the Islamic Orient at a time when the region was witnessing the Crusader danger that seized several regions.
In addition to its political role, it had achievements in the civilized aspect, which were clearly manifested in the establishment of institutions and scientific centers such as mosques, schools and other institutions, and in attracting and encouraging scholars, and providing what students need. It also reformed the economic situation, and facilitated decent livelihoods. These efforts had positive repercussions on the Islamic community, so that the scientific life flourished, and the cities and metropolises in which mosques and schools were built became scientific beacons, intended for students of knowledge from all over the Islamic world, and conditions improved. The social and economic aspects of the Islamic community as a result of the efforts made in this aspect.
Keywords: the Islamic Orient, the Alzinkia state, civilizational achievements, scientific life, social life

مقدمة: تعد الدولة الزنكية من الدويلات التي ظهرت في بلاد المشرق في فترة كان الوضع السياسي للمنطقة متميزا بالتوتر والصراعات الداخلية وتداعي الخطر الصليبي الذي بات يهدد العالم الإسلامي. وأمام هذه الظروف ظهرت الدولة الزنكية ،وحاولت التصدي للتحديات المحدقة بالمنطقة،ولكن الشيئ الملاحظ أن هذه الدولة لم تنحصر جهودها في الجانب السياسي، ومن هذا المنطلق نتساءل هل كان لهذه الدولة جهود في الجانب الحضاري،؟وما هي أهم المنجزات التي قام بها سلاطين هذه الدولة،و آثارها في الحياة المذهبية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية.؟.

1. ظروف نشأة الدولة الزنكية:

الزنكيون أتراك الأصل ينتسبون إلى السلاجقة[1]،وتنسب الدولة الزنكية إلى عماد الدين زنكي بن آق سنقر الذي ذاع صيته عندما اشترك في قتال الصليبيين في سنة 506هـ/1112م،فأظهر شجاعته

[1]-السلاجقة:ينتسب السلاجقة إلى مجموعة من القبائل التركية عرفت باسم الغز واستقرت بالهضاب القريبة من بحيرة خوارزم (بحر آرال)ثم نزلت بالقرب من السواحل الشرقية لبحر قزوين وفي الهضاب

فكافأه السلطان السلجوقي بمنحه البصرة وواسط ليعمل في خدمته حتى صار وصيا أتابكيا [1] لإثنين من أبناء السلطان،ثم ظهرت أتابكية الموصل[2]،لكن عماد الدين تطلع لإقامة امارة مستقلة عن السلاجقة تكون أحسن من الموصل لذلك تطلع إلى حلب التي تمتاز بموقعها الاستراتيجي و كانت عاملا مساعدا لمواجهة تحيات الغرب الصليبي .

ولقد ظهرت هذه الدولة في ظروف حرجة كان يمر بها العالم الإسلامي والمتمثلة في تداعي قوى الغرب الأوروبي الصليبي على العالم الإسلامي،فكان الصليبيون قد تمكنوا من تأسيس أربع امارات لاتينية في قلب العالم الإسلامي وهي الرها[3] و أنطاكية[4]،وبيت المقدس،وطرابلس[5] مستغلين تدهور وضعف الدولة

الحيطة بنهر جيحون وقد أطلق على هذه القبائل التركية اسم السلاجقة نسبة إلى رجل تزعمها يدعى سلجوق بن تقاق(ق.5هـ/11م)وقد أسسوا دولة وكان لهم دور في الدفاع عن الخلافة العباسية« ابن الأثير،الكامل في التاريخ تحقيق عمر عبد السلام التدمري،ط. 1،دار الكتاب العربي، بيروت ،لبنان ،1997مج.8،ص.5،الفتح بن محمد البنداري، تاريخ آل سلجوق ،مصر 1318هـ/1900م ص.15،حسن أحمد محمود و أحمد ابراهيم الشريف العالم الإسلامي في العصر العباسي،ط.2،دار الفكر العربي 1972 ص.551،لمزيد من التفصيل عن دور لسلاجقة انظر دراستنا جهود السلاجقة في الدفاع عن الخلافة لعباسية والمجتمع الإسلامي(431هـ-547هـ/1039-1152م،مجلة الباحث،المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة العدد :12 جوان 2015»

[1] الأتابك: لفظ تركي مركب من أتا بمعنى أب أو الشيخ المحترم وبك بمعنى الأمير ،وقد استخدم هذا المصطلح في نهاية العصر العباسي حيث كان لقب مربي و مراقب أبناء ملوك السلاجقة،ثم تطور في العصر المملوكي ليطلق على أمير الجيش أو قائده.« مصطفى عبد الكريم الخطيب،معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط.1، مؤسسة الرسالة، بيروت 1416هـ/1996م،ص.17»

[2]-الموصل: هي ثالث أكبر المدن العراقية بعد بغداد والبصرة ،تقع في شمال العراق على نهر الدجلة.« د.يحي شامي ،موسوعة المدن العربية والإسلامية ،ط.1،دار الفكر العربي بيروت،1993،ص81 »

[3]-الرها:بضم الراء والمد، مدينة من أرض الجزيرة متصلة بحران، وهي من أكبر المدن التركية الجنوبية الشرقية« أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميرى ،الروض المعطار في خبر الأقطار المحقق: إحسان عباس،ط.الثانية،مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت - طبع على مطابع دار السراج، 1980م،ج.1ص273،شامي،نفسه،ص.315»

[4]-أنطاكية: احدى المدن المشهورة في بلاد الشام. « شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي،معجم البلدان،ط. 2،دار صادر،بيروت 1995م،ج.1،ص.266»

[5]-طرابلس: مدينة تقع بالشام وهي ثاني أكبر المدن اللبنانية بعد العاصمة بيروت. « ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي،مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع الطبعة: الأولى دار الجيل،

السلجوقية بسب النزاعات الداخلية،وكذلك عجز الخلافة العباسية عن مواجهة الوضع.وأمام هذه التحديات المحيطة ظهرت شخصية عماد الدين زنكي [1] الذي أدرك حقيقة ما آلت إليه الأوضاع في الشرق الأدنى من التشتت والتدهور،فهنالك عمل جاهدا على تحقيق الوحدة الإسلامية،وإنشاء جبهة إسلامية موحدة ليتمكن من التصدي للخطر الصليبي.ومن هنا يظهر لنا جليا الدور السياسي الذي قامت به الدولة في هذه المرحلة الحرجة من التاريخ الإسلامي.[2]

وبعد ذلك واصل انتصاراته بحيث نجح في ضم شمال بلاد الشام إلى إمارة الموصل ليتصد للصليبيين ،فنجح في استعادة امارة الرها،وكان لهذا الانتصار أثر بارز إذ أثبت مدى قدرة الجيش الإسلامي في مجابه الخطر الصليبي،وهذا مايوضح جهود هذه الدولة في إرساء دعائم الوحدة الإسلامية واسترداد المناطق التي استولى عليها الصليبيون.[3]وبالإضافة إلى الدور السياسي الذي قامت به هذه الدولة فقد كان لها دور حضاري وهذا ماسنحاول إبرازه ببعض الشواهد التاريخية.

2-انشاء المؤسسات والمراكز العلمية:

إن الدارس لهذه الدولة يجد أنها كانت مهتمة بالعلم والعلماء وتجلى ذلك في المنشآت التي أسستها فقد أطلعنا المحدث والمؤرخ أبو شامة (ت.665ه/1266م) بنص في وصف نور الدين محمود (ت.569ه/ 1174م) قائلا:«وأما زمانه فهو مصروف إلى مصالح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهم وأما فكره ففي إظهار شعار الإسلام وتأسيس قاعدة الدين من بناء ... المدارس والمساجد حتى إن بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله وفي زمانه صارت مقرا للعلماء والفقهاء والصوفية لصرف همته إلى بناء

بيروت 1412 ه ج.2.ص.882.د.يحي الشامي ،موسوعة المدن العربية والإسلامية ،ط.1،دار الفكر العربي بيروت،1993،ص.127»

[1]- عماد الدين زنكي (ت 541ه/ - 1146م) هو عماد الدين بن قسيم الدولة الحاجب آق سنقر: أبو غازي ومودود ومحمود، تملك حلب وكان له دور فيي محاربة الصليبيين في بلاد الشام.«خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي ، الأعلام، الطبعة: الخامسة عشر، دار العلم للملايين، 2002 م،ج.3ص.50»

[2]-سهيل طقوش،تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام (521-630ه/1127-1233م)،ط.2،دار النفائس بيروت، 2010،ص. 9،أحمد معمور العسيري،موجز التاريخ الإسلامي منذ آدم عليه السلام إلى عصرنا الحاضر،فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية،الرياض،د.ت.ط.ص.253 سوزي حمودي،الفاطيون والزنكيون والمماليك والأيوبيون وصراعهم حول السلطة في المشلرق العربي (362-923ه/973-1517م)،دار النهضة العربيةد.ت.ط،ص. 40

[3]-طقوش،المرجع السابق،ص. 9

المدارس والربط وترتيب أمورهم والناس آمنون على أموالهم. »[1]هذا مايبن أنه كان معروفا بحبه للعلم والعلماء،كما أنه أوقف كتبا كثيرة في مدارسه،وكان متبعا للآثار النبوية،ومواظبا على الصلوات الخمس في الجماعات،وعاكفا على تلاوة القرآن وحريصا على فعل الخير،وما إلى ذلك من الصفات الحميدة.[2]

فشهدت الدولة الزنكية نشاطا علميا واسعا تجلى بوضوح في بناء المدارس بعد أن كانت خالية من العلم وأهله وأضحت مركزا للعلماء والفقهاء.[3]و كان نور الدين قد اتخذ هذه المراكز العلمية وسيلة للتصدي لخطر الشيعة وحماية المجتمع من أفكارهم والانتصار لعقيدة أهل السنة ولهذا كان التعليم بالدرجة الأولى يقوم أساسا على العلوم الشرعية.

وعرف أيضا السلطان مجاهد الدين قايماز (ت.595هـ/1198م)بعنايته للعلم،فقد بنى بالموصل جامعا كبيرا ومدرسة[4] وخانقاه.[5]

ونستهل حديثنا عن المراكز العلمية التي خدمت الحضارة الإسلامية بالمساجد والجوامع لكونها لم تكن أماكنا للعبادة فقط،بل كانت تعقد فيها الدروس والحلقات العلمية مما ساهمت بقسط كبير في تعليم المجتمع أمور دينهم،ونشر الثقافة الإسلامية فنذكر على سبيل المثال:

الجامع النوري الذي ينسب إلى نور الدين محمود زنكي ذلك أنه لما دخل الموصل سنة 566هـ/1170م قام بتنظيمها ولإالة المظالم،ثم قام ببناء الجامع،ورأى أن خير رجل يقوم بهذا العمل شيخه الملا عمر،ففوض إليه أمر بنائه،وأوقف عليه أوقافا كثيرة،كما بنى به مدرسة،وأصبح من المعالم الحضارية المشهورة في العام الإسلامي.[6]

---

[1]- أبو شامة المقدسي،عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية تحقيق:ابراهيم الزيبق،مؤسسة الرسالة بيروت1418هـ/1997م،ج.1،ص.62 ،«الزركلي،المرجع السابق، ،ج.7،ص.170»

[2]-سبط ابن الجوزي،مرآة الزمان في تواريخ الأعيان مجموعة من المحققين،ط.1،دار الرسالة العالمية، دمشق - سوريا1434 هـ - 2013 م،ج.21ص. 204

[3]- طقوش،المرجع السابق،ص. 412، سبط ابن الجوزي،نفسه،ج.21،ص. 203 .

[4]- شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان المحقق: إحسان عباس،ط.1،دار صادر ،بيروت المصدر السابق،ط.1،دار صادر بيروت،1971ج.4،ص.ص.82-84

[5]- الخانقاه: لفظ فارسي جمعه خوانق أطلق في العصر الإسلامي على الأماكن التي يرتادها الزهاد وأصحاب الطرق الصوفية وكانت مؤلفة من عدة أقسام خصص بعضها للعبادة وجزء للطعام وايواء المقيمين وتعليمهم وأوقف عليها السلاطين والميسورون أموالا كثيرة.«عبد الكريم الخطيب،المرجع السابق،ص. 158»

[6]- السعيد الديوه جي،الموصل في العهد الأتابكي،مطبعة شفيق،بغداد 1958م،ص.129-131

والجامع المجاهدي الذي بناه مجاهد الدين قايماز (ت.595ه/1198م) حيث باشر في بنائه سنة 572ه/1176م،واستخدم أمهر البنائين وخصص له مبلغا كبيرا من المال .[1]وبالاضافة الى ذلك أولت الدولة الزنكية اهتماما بالحديث النبوي وتعليمه،فأنشأ نور الدين محمود زنكي دار الحديث النورية وهي أول دار أنشئت للحديث في بلاد الشام،وأوقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث الكثير من الأوقاف،وقد تولى مشيختها في عصره المحدث والمؤرخ أبو القاسم بن عساكر(ت. 571 ه/1176 م)و غيره.ودار الحديث المظفرية التي بناها مظفر الدين كوكبوري صاحب اربل (ت.549ه/1154م).[2]

وأنشئت بحلب أول مدرسة سنة 515ه/1121 أو 517ه/1123م بناها بدر الدولة سليمان بن أرتق صاحب حلب وهي تسمى المدرسة الزجاجية،كما أنشأنور محمود بها مدرسة سنة 545ه/1150م وهي المدرس العصرونية،واستدعى لها من سنجار[3] الفقيه شرف الدين بن أبي عصرون (ت.585ه/1189م) وأسس له مدارس في حلب ودمشق وحماة وبعلبك وعرفت بالمدارس العصرونية.[4]و بنى في حلب المدرسة المدرسة الحلاوي والنفرية النورية الشافعية،وجدد مسجد الغضائري وجعله مدرسة على المذهب الشافعي،وأوقف في جامع حلب الجامع الأعظم زاويتين لتدريس مذهبي مالك وأحمد،وزاوية ثالثة لتدريس الحديث،كما أقام في دمشق عددا من المدارس أشهرها:المدرسة النورية لتدريس المذهب الشافعي ومدرسة جامع القلعة والمدرسة العمادية.[5]

و اشتهرت في بلاد الشام المدرسة العادلية الكبرى وهي تنسب إلى نور الدين محمود زنكي،ولم يكمل بناءها،ثم عمل فيها الملك العادل سيف الدين[6].

---

[1]- ابن خلكان،المصدر السابق،ج4،ص.82-84،الديوه جي،نفسه،ص.ص.131-132

[2]- الديوه جي،نفسه،ص.154 ،أحمد بدوي،الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر وبلاد الشام،مكتبة دار النهضة، د.ت.ط،ص.67، الزركلي،المرجع السابق، ج.4،ص.273

[3]- سنجار:بكسر أوله،وسكون ثانيه،مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة،« الحموي، المصدر السابق،ج.3،ص.263»

[4]-بدوي،المرجع السابق،ص.ص 70-71،أبو شامة المصدر السابق،ج.1،ص.47،الزركلي،المرجع السابق،ج.4،ص.124

[5]-طقوش،المرجع السابق،ص.414،ابن الأثير،المصدر السابق،ج.9،ص. 395

[6]-هو الملك العادل سيف الدين، أخوه السلطان صلاح الدينو من أمراء الدولة الأيوبية« ابن خلكان،المصدر السابق، ج.5.ص .74»

ثم أتمها ولده المعظم و أوقف عليها الأوقاف الكثيرة.[1] وقد زار هذه المدرسة الرحالة ابن جبير(ت.614هـ/1217م)،وأعجب بها وعدها من أحسن المدارس.[2]

و كذلك في الموصل لما استقر الأمر للدولة الزنكية بنى نورالدين أرسلان شاه الأول ابن عز الدين مسعود الأول (589هـ - 607هـ/ 1193م - 1210م)مدرسة جعلها وقفا على ستين فقيها من الشافعية،[3]وهذا ما أكده ابن خلكان(ت.681هـ/1282م) بقوله: «...وبنى مدرسة للشافعية بالموصل قل أن توجد مدرسة في حسنها» [4] و بقي التدريس في هذه المدرسة مستمرا إلى القرن الثامن الهجري[5] و المدرسة المجاهدية تنسب تنسب إلى مجاهد الدين قايماز (ت.595هـ/1198م)[6] و المدرسة الأتابكية العتيقة التي أسسها سيف الدين غازي بن عماد الدين (541-544هـ/1146-1149م)وقد جعلت وقفا للشافعية والحنفية.[7]

و المدرسة العزية أسسها عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود(ت.589هـ/1193م)وكانت مخصصة للفقهاء الحنفية والشافعية،وصفها ابن خلكان بأنها من أحسن المدارس،[8]وغيرها من المدارس.

وعلى ضوء هذه المعطيات نلاحظ أن أمراء هذه الدولة تنافسوا في اقامة المؤسسات العلمية في مناطق نفوذهم لتنشيط الحياة العلمية.ولاشك أن هذه المنجزات الحضارية جعلت بلاد الشام والعراق محل اهتمام المغاربة والرحالة،ووثقت العلاقات بين حواضر بلاد المشرق والمغرب،فقد توجه العلماء والأدباء

---

[1]- كرد علي،خطط الشام،دمشق، 1928.ج.6،ص.83،عبد القادر بن محمد النعيمي،الدارس في تاريخ المدارس،تحقيق: إبراهيم شمس الدين،ط. 1،دار الكتب العلمية،بيروت،1410هـ/1990م،ص. 466

[2]-محمد بن أحمد ابن جبير و حلة،دار ومكتبة الهلال،بيروت د.ت.ط،ص.213

[3]- الديوه جي،الرجع السابق،ص. 143

[4]-ابن خلكان،وفيات الأعيان ،ط، دار صادر – بيروت 1900.ج.1،ص. 193

[5] - الديوه جي،نفسه،ص.144

[6]- ابن الأثير،المصدر السابق،ج.10،ص. 168،ميمون ذنون العبايجي،الكامل في التاريخ 630هـ/1233م مصدار لدراسة خطط الموصل في العصر الأتابكي 521-660هـ/1127-1261م،مجلة اضاءات موصلية ،العدد: 76 ذو القعدة 1434هـ/تشرين الأول 2013م،ص.10

[7]- العبايجي،نفسه،ص9 ،ابن خلكان،وفيات الأعيان،ط.1971ج.4،ص.4

[8]-ابن خلكان،وفيات الأعيان،ط. 1،دار صادر –بيروت 1994،ج.5،ص.207 ،الديوه جي،المرجع السابق،ص.141

إلى بلاد الشام و لاسيما أن الدولة عملت على جلب العلماء،فاستدعاهم نور الدين محمود،و أكرامهم وقد كان لهم دور بارز في الحياة العلمية بالمشرق الإسلامي ومن هؤلاء على سبيل المثال: الفقيه برهان الدين أبو الحسن البلخي الحنفي من دمشق،والإمام رضي الدين محمد السرخسي صاحب كتاب المحيط (ت.671ه/1272م)،والشيخ شرف الدين بن أبي عصرون (ت.585ه/1189م)، ومحمد بن محرز بن محمد الوهراني(ت.575ه /1179م) الذي نشأ بوهران ورحل إلى المشرق ودخل دمشق في عهد نور الدين محمود بن زنكي،ثم زار بغداد وعاد إلى دمشق،فولي خطابة جامع داريا من قراها[1].والفقيه الحنفي ابن مكي الرازي(ت.598ه/1201م) الذي أقام مدة في حلب في عهد نور الدين محمود[2]،وبالإضافة إلى ذلك منحت الضمانات المالية والاجتماعية للشيوخ وطلبة العلم[3]. فنلاحظ أن بلاد الشام والموصل أضحت من المراكز العلمية الكبرى التي يوتجه إليها العلماء؛لما وجدوه من ظروف مناسبة ورعاية من السلطة الحاكمة وهذا لاشك كان عاملا في إ دهار الحياة العلمية بالدولة الزنكية والتأثير في حواضر العالم الإسلامي الأخرى.

3.العناية بالحياة الاقتصادية والاجتماعية:

[1]-طقوش ،المرجع السابق،ص.412-413،عادل نويهض،معجم أعلام الجزائر،من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر،ط:الثانية،مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر،بيروت – لبنان 1400 هـ - 1980،ص. 350،خليفة حاجي،حاجي خليفة أو الحاج خليفة،كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون دار إحياء التراث العربي، 1941م،ج.2،ص.1620،ابن خلكان،المصدر السابق،دار صادر – بيروت-1900،ج. 3،ص.55

[2]-الزركلي،المرجع السابق،ج.4،ص.256

[3]-طقوش،المرجع السابق،ص.412-413 ،عادل نويهض،المرجع السابق،ص. 350،حاجي خليفة ،المرجع السابق،ج.2،ص.1620،ابن خلكان،المصدر السابق،ج. 3،ص.55

تجلت عناية الدولة الزنكية بهذا الجانب في التزم نور الدين بأحكام الشريعة فيما يتعلق بجبي الضرائب التي كانت قد تزايدت في عهد الفاطميين في مصر وهذا ماكانت له انعكاسات سلبية على النشاط الاقتصادي.[1]فعمل على تخفيف الضرائب والمكوس إلى الحد الأدنى في جميع أنحاء دولته.[2]

ومن الشواهد التاريخية التي تؤكدذلك ماأطلعنا به أبو شامة(ت.665هـ/1266م): حيث قال:« وفي 569هـ/1173م جمادي الأولى أبطل نور الدين رحمه الله فريضة الأتبان ورأيت منشوره بذلك وعلامته عليه بخطه الحمد لله يقول فيه وبعد فإن من سنتنا العادلة وسير أيامنا الزاهرة وعوائد دولتنا القاهرة إشاعة المعروف وإغاثة الملهوف وإنصاف المظلوم وإعفاء رسم ما سنه الظالمون من جائرات الرسوم وما نزال نجدد للرعية رسما من الإحسان يرتعون في رياضه ويرتوون من حياضه ونستقري أعمال بلادنا المحروسة ونصفيها من الشبه والشوائب ونلحق ما نعثر عليه من بواقي رسومها ...بما أسقطناه من المكوس والضرائب.»[3]

ومن جانب آخر قام نور الدين بتخفيف أعباء الحياة الاقتصادية عن المجتمع،وبذل قصارى جهده لتسهيل سبل العيش الكريم وذلك بتقديم الخدمات الاجتماعية،وقد تجسد ذلك في الأوقاف الكثيرة على المؤسسات العلمية.وفي هذا التوجه أنشأ مجاهد الدين حاكم الموصل مكتبا للأيتام،و وفر لهم جميع ما يحتاجون إليه،[4]

ولهذا نلاحظ من خلال هذه السياسة الهادفة إلى تحقيق السلم والاستقرار في المجتمع توفير الظروف المساعدة على النهوض الحضاري والازدهار العلمي ولتمكين المجتمع من مواجهة تحديات الغرب الصليبي.

وكذلك عمل نور الدين على ايجاد آليات لخدمة المجتمع الإسلامي ؛بحيث جعل مؤسسات دولته موجهة لتلبية حاجيات السكان في جميع المجالات،ففي النشاط الزراعي اعتنت الدولة الزنكية بالزراعة لكونها عاملا مهما في ازدهار الحياة الاقتصادية،فقام بحماية الفلاحين والحفاظ على نشاطهم وهذا ماتجلى واضحا في السياسة التي اتبعها في حروبه بحيث كان يشدد على جنده بأن لايفسدوا المزارع والضياع والقرى و كتب إلى زعماء دمشق حيث قال«: إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالبا لمحاربتكم ولا منازلتكم وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين ... الذين أخذت أموالهم وشتت

---

[1]-ماجد عرسان الكيلاني،هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس،ط.2،دار القلم الامارات العربية المتحدة،2002م،ص. 285

[2]-طقوش،نفسه.418

[3]-أبوشامة،المصدر السابق،ج2.ص.270

[4]-طقوش،المرجع السابق،ص.419 ،ابن خلكان،المصدر السابق،ج.4،ص.83

نساؤهم وأطفالهم بيد الإفرنج وعدم الناصر لهم.»[1]وبذلك استطاع نور الدين أن يكسب الفلاحين ويجعلهم سندا للجيش النوري[2].

والإضافة إلى ذلك نشطت التجارة بإنشاء مراكز للتجار،كما أقام الأبراج لحماية طرق القوافل التجارية،وألغى المكوس[3] ،فتشير المصادر التاريخية في هذا السياق أنه لما دخل نور الدين الموصل في سنة 566هـ/1170م ألغى جميع المكوس على كل المناطق التي فتحها؛مما أدى إلى رواج النشاط التجاري.[4] وقد أشار الإدريسي (ت.560هـ/1164م) الذي زار مدنية دمشق إلى ذلك ووصف درجة الإزهار الاقتصادي الذي بلغته.[5]

ومن آثار هذه السياسة أيضا ما أطلعنا به الرحالة ابن جبير(ت.614هـ/1217م) في جانب المنجزات التي قام بها نور الدين رحمه حيث قال:«...عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك أوقافا كثيرة منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاءوحمام ودكانان بالعطارين...ثم يضيف قائلا :ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء،ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل،والمنتمين للطلب فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جدا».[6]هذا مايوضح أن هذه المرافق التي

---

[1]-محمد نجيب /عبد الوهاب محمدحمد،السياسة الداخلية لنور الدين محمود زنكي (541-569هـ/1146-1174م)،رسالة ماجستير في لتاريخ الإسلامي ،الجامعة الإسلامية غزة 1430هـ/2009م،ص. 138،حمزة بن أسد بن علي ،ابن القلانسي،تاريخ دمشق،المحقق:د سهيل زكار ،ط.1، دار حسان للطباعة والنشر،لصاحبها عبد الهادي حرصوني - دمشق1403هـ - 1983م،ص.479

[2]- عبد الوهاب محمدحمد،نفسه،ص.138

[3]-المكوس: مفرد مكس وهي ضريبة يأخذها المكاس ممن يدخل البلاد من التجار والفلاحين على البضائع القادمين بها. « عبد الكريم الخطيب،المرجع السابق،ص.406»

[4]-عصام محمد شبلو،السلاطين في المشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري،دار النهضة العربية،بيروت، 1994، ص 1994، 127،جمال الدين ابن واصل،مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، وآخرون،دار الكتب والوثائق القومية المطبعة الأميرية 1957 ج.1،ص. 283،أبو شامة المصدر السابق،ج.2،ص.168

[5]- عبد الوهاب محمدحمد ،نفسه،143،محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي،المعروف بالشريف الإدريسي،نزهة المشتاق في اختراق الآفاق الطبعة:الأولى عالم الكتب،بيروت1409هـ/1988،ج.1ص.369

[6] - ابن جبير،المصدر السابق،ص. 232

خصصت لعابري السبيل وطلبة العلم بلاشك قد خدمتهم،ووفرت لهم مايحتاجونه وهذا يندرج ضمن السياسة التي تبتها الدولة في خدمة المجتمع،وقام نور الدين بأعمال خيرية أخرى،فأقطع أمراء العرب القطائع لئلا يتعوضوا للحجاج وبنى الرِبط[1]،.

كما بنى الجسور والخانات.[2] و دار ا للعدل وكان سبب بنائه لها أن أمراء وقواد جيويشه تعدوا على من يجاورهم.[3]

ومن منجزات هذه الدولة البيمارستان الكبير النوري وهو من أهم البيمارستانات[4] وأشهر المنشات الحضارية في دمشق سنة 549هـ 1154م،فكان قد خصص للفقراء والمساكين،وإذا لم توجد بعض الأدوية إلا فيه فلا يمنع منه الأغنياء،وخصصت له أوقاف على المرضى والمجانين ،وجهز المستشفى بكل المستلزمات و المرافق،فكان بمثابة جامعة طبية في المشرق الاسلامي كله في ذلك العصر.[5]

---

[1]-الرِبط: يقصد بهذا المصطلح ملازمة ثغر العدو،فأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيلهم، وصار لزوم الثغور رباطا، ثم أطلق اسم الرباط على المنشآت المعدة للجهاد القريبة من ثغور المسلمين بينهم وبين أعدائهم خلال فترة العصر الإسلامي الوسيط، حينما كان المسلمون يواجهون تحديات الخطر الصليبي،وإن هذه المنشآت لم يقتصر دورها في الجانب العسكري فقط، بل كانت أهميتها لا تقل عن المراكز العلمية الأخرى من حيث كونها مكانا للدعوة إلى الإسلام، وتعليم القرآن وباقي العلوم ،فمن الأربطة التي بنيت في الموصل رباط سيف الدين غازي(541-544هـ)«ابن منظور،المصدر السابق،ج. 7،ص. 302 وما بعدها،حسن إبراهيم حسن،تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي،ط.14،دار الجيل بيروت،مكتبة النهضة المصرية القاهرة،1416هـ/ 1996م،ج. 4،ص. 413 وما بعدها،الديوه جي،المرجع السابق،ص.155 »

[2]-الخانات : لفظ فارسي معناه منزل أو مأوى « عبد الكريم الخطيب ،المرجع السابق،ص.185»

[3]- محمد العبدة،أيعيد التاريخ نفسه ط.3،سلسلة تصدر عن المنتدى الاسلامي1999م،ص.109؛ أبوشامة،المصدر السابق،ج.1،ص.41

[4]-البيمارستان: (بفتح الراء،وسكون السين)،وهي كلمة فارسية مركبة من "بيمار" بمعنى مريض، أو عليل،و "ستان" بمعنى مكان أو دار، فهي إذا دار للمرضى، ثم اختصرت في الاستعمال فصارت (مارستان)،وهي تعني في وقتنا الحاضر المستشفى.«أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية،تحقيق،أحمد عبد الغفور عطار،ط. 4،دار العلم للملايين، بيروت، 1407هـ/1987م،ج. 3، ص. 978، أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط. 2،بيروت، 1401هـ/1981م،ص،ص. 3، 4،الفيض المرتضى الزبيدي،تاج العروس من جواهر القاموس،تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية،د. ت. ط.،ج. 6،ص. 500».

[5]-أحمد عيسى،تاريخ البيمارستانات في الإسلام الطبعة: الثانية دار الرائد العربي، بيروت - لبنان

الخاتمة: نستنتج أن الدولة الزنكية تعد من الدويلات التي نشأت في المشرق الإسلامي وكان لها دور ملحوظ في التاريخ السياسي والحضاري في فترة كان العالم الإسلامي أمام تصاعد خطر الغرب الصليبي و تفاقم التمزق الداخلي،وقد استطاعت هذه الدولة بحنكة قادتها تحقيق جملة من الانجازات نوجزها فيمايلي:

- التصدي للغزو الصليبي وارساء دعائم الجهاد الإسلامي،والدفاع عن الدولة الإسلامية.
- اهتمت هذه الدولة بالجانب الحضاري،بحيث شجعت الحياة العلمية وهذا ماتجلى في جلب العلماء وانشاء المدارس والمساجد وغيرها من المؤسسات العلمية.
-ساهمت هذه الدولة في اصلاح الجانب الاجتماعي والاقتصادي.وكانت تلك المنجزات التي ذكرتها آنفا عاملا في مد جسور التواصل بين المشرق والمغرب وتمتين الصلات والعلاقات بين حواضر المشرق الإسلامي،ولهذا يمكن القول أن مشروع هذه الدولة كان متكاملا ومنسجما مع تطلعات المجتمع الإسلامي يومئذ.

قائمة المصادر والمراجع:

أ–المصادر:

-الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق الطبعة: الأولى عالم الكتب،بيروت1409هـ/1988

-ابن الأثير، أبو الحسن، الكامل في التاريخ تحقيق عمر عبد السلام التدمري ط. 1،دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان ،1997م،

- البنداري الفتح بن محمد ، تاريخ آل سلجوق ،مصر 1318هـ/1900م

- ابن جبير محمد بن أحمد ،رحلة ،دار ومكتبة الهلال،بيروت د.ت.ط

-ابن الجوزي سبط ،مرآة الزمان في تواريخ الأعيان مجموعة من المحققين، الطبعة: الأولى دار الرسالة العالمية، دمشق - سوريا1434 هـ - 2013 م

- ابن خلكان شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان المحقق: إحسان عباس،ط.1،دار صادر – بيروت ،ط.1، دار صادر – بيروت1900،1971، 1994

- الحموي شهاب الدين أبو عبد الله،معجم البلدان الطبعة: الثانية دار صادر، بيروت 1995م

1401 هـ - 1981م،ص. 206،سبط ابن الجوزي،المصدر السابق،ج.21،ص.204، عبد الوهاب محمدحمد ،المرجع السابق-169-167

- الحميرى أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميرى ،الروض المعطار في خبر الأقطار المحقق: إحسان عباس، ط. الثانية،مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت - طبع على مطابع دار السراج الطبعة: الثانية، 1980م

-الزبيدي الفيض المرتضى ،تاج العروس من جواهر القاموس،تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية،د. ت. ط

- أبوشامة المقدسي،عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية تحقيق:ابراهيم الزيبق،مؤسسة الرسالة بيروت1418ه/1997م

-الفارابي أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية،تحقيق،أحمد عبد الغفور عطار،ط. 4،دار العلم للملايين، بيروت، 1407ه/1987م

- القطيعي البغدادي، ابن شمائل الحنبلي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع الطبعة: الأولى دار الجيل، بيروت 1412 ه

- ابن القلانسي،حمزة بن أسد بن علي بن محمد،أبو يعلى التميمي تاريخ دمشق،المحقق:د سهيل زكار ،ط.1، دار حسان للطباعة والنشر،لصاحبها عبد الهادي حرصوني - دمشق1403ه - 1983م

- ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين، لسان العرب، الطبعة: الثالثة دار صادر - بيروت - 1414ه

- النعيمي،عبد القادر بن محمد،الدارس في تاريخ المدارس،تحقيق: إبراهيم شمس الدين،ط. 1،دار الكتب العلمية،بيروت،1410ه/1990م

- ابن واصل جمال الدين،مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، وآخرون،دار الكتب والوثائق القومية المطبعة الأميرية 1957م

ب-المراجع:

-بدوي أحمد ،الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر وبلاد الشام،مكتبة دار النهضة، د.ت.ط

-بك أحمد عيسى،تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط. 2،بيروت، 1401ه/1981م

- ديوه جي السعيد ،الموصل في العهد الأتابكي،مطبعة شفيق،بغداد 1958م

- حاجي خليفة حاجي، خليفة أو الحاج خليفة،كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون دار إحياء التراث العربي 1941م

-حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي،ط.14،دار الجيل بيروت،مكتبة النهضة المصرية القاهرة، 1416ه/ 1996م

- حمودي سوزي،الفاطيون والزنكيون والماليك والأيوبيون وصراعهم حول السلطة في المشلرق العربي (362-923ه/973-1517م)،دار النهضة العربيةد.ت.ط

- الزركلي خير الدين بن محمود بن محمد بن علي،الأعلام،ط.الخامسة عشر،دار العلم للملايين2002م
- شامي يحي ،موسوعة المدن العربية والإسلامية،ط.1،دار الفكر العربي بيروت،1993
-شبارو،عصام محمد ،السلاطين في المشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري،دار النهضة العربية،بيروت، 1994
- طقوش سهيل،تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام (521-630هـ/1127-1233م)،ط.2،دار النفائس بيروت، 2010
- عبد الكريم الخطيب مصطفى،معجم المصطلحات والألقاب التاريخية،ط.1.مؤسسة الرسالة، بيروت 1416هـ/1996م
- العبدة محمد ،أيعيد التاريخ نفسه،ط.3،سلسلة تصدر عن المنتدى الاسلامي1999م
- العسيري أحمد معمور أحمد،موجز التاريخ الإسلامي منذ آدم عليه السلام إلى عصرنا الحاضر،فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض،د.ت.ط
-علي كرد ،خطط الشام،دمشق، 1928م
- الكيلاني،ماجد عرسان ،هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس،ط.2،دار القلم الامارات العربية المتحدة،2002م
- نويهض عادل ،معجم أعلام الجزائر،من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر،ط:الثانية،مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر،بيروت – لبنان 1400 هـ - 1980
-محمود حسن أحمد محمود و الشريف احمد ابراهيم، العالم الإسلامي في العصر العباسي،ط.2،دار الفكر العربي 1972

-الرسائل الجامعية:

- عبد الوهاب محمد،حمد محمد نجيب ،السياسة الداخلية لنور الدين محمود زنكي (541-569هـ/1146-1174م)،رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي ،الجامعة الإسلامية غزة 1430هـ/2009م

-المجلات:

-مروان بن شوش،جهود السلاجقة في الدفاع عن الخلافة لعباسية والمجتمع الإسلامي(431هـ-547هـ/1039-1152م،مجلة الباحث، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة العدد :12 جوان 2015
-العبايجي،ميمون ذنون ،الكامل في التاريخ 630هـ/1233م مصدار لدراسة خطط الموصل في العصر الأتابكي 521-660هـ/1127-1261م،مجلة اضاءات موصلية العدد :76 ذو القعدة 1434هـ/تشرين الأول 2013م